الفصل الثانى

قيان مسمّيات

يبدو لنا ممّا ذكرناه فى الفصل السابق وممّا سنذكره فى هذا الفصل والفصل الذى يليه أن القيان كن مبثوثات فى جميع أنحاء الجزيرة العربيّة ، بل ربّما كان من الحقّ أن نقول إن الجزيرة كانت تزخر بهنّ . ولكنّنا مع ذلك نجد أن الشعر الجاهلى والروايات الأدبيّة والتاريخيّة ، حين تعرّضت لهنّ ، قلّما تذكر قينة باسمها ، وإنّما تشير إليهنّ إشارة عامة لا تخصّص ولا تسمّى — إلاّ فى القليل النادر . وقد فطن القدامى إلى وفرتهنّ الطامية فألّفوا كتبًا كاملة عنهن يذكرون فيها أسماءهنّ وأخبارهنّ . فقد ذكر ابن النديم[1] طائفة من هذه الكتب ، منها : كتابان لإسحاق بن إبراهيم الموصلى هما كتاب القيان وكتاب قيان الحجاز ، وكتاب ليونس الكاتب هو كتاب القيان ، وكتاب لحسن بن موسى النصيبى هو كتاب الأغانى على حروف المعجم ، « ذكر فيه من أسماء المغنين والمغنيات فى الجاهليّة والإسلام كلّ طريف وغريب » ، وكتابان لأبى أيوب المدينى أحدهما عن قيان الحجاز عامة والآخر عن قيان مكّة خاصة . ولأبى الفرج نفسه كتاب فى أخبار القيان . ذلك كلّه غير كتب الأغانى عامة ، ولا شكّ أن فيها ذكراً لطائفة من هؤلاء القيان . وقد عثرت على مخطوط لابن الطحان الموسيقى فيه فصل عن أسماء القيان فى العصر الجاهلى — وسأذكر طرفاً من حديثه آخر هذا الكتاب .

وينبغى أن أستدرك أن ليس فى هذه الكتب ما ينصّ على أنّها تتناول قيان العصر الجاهلى ، ما عدا كتابين : أوّلهما وصفه ابن النديم بأن مؤلفه ذكر فيه

(١) الفهرست — الفن الثالث من المقالة الثالثة .

من أسماء المغنين والمغنيات فى الجاهليَّة والإسلام كلّ طريف وغريب ، والثانى عثرنا عليه فرأينا فيه فصلاً عن أسماء قيان الجاهليَّة. وإنَّما ذكرنا سائر الكتب هنا لأنَّنا رجَّحنا أنَّها تتناول قيان الجاهليَّة أو طرفًا من أخبارهن — على عادة القدامى فى التاريخ وتناوله منذ بدء الخليقة . ذلك دأبهم فى الكتب العامة ، فأحرى أن يكون كذلك فى الكتب الخاصة . فإذا كان كتاب الأغانى لأبى الفرج ، وكتاب الأغانى لحسن بن موسى النصيبى ، وكتاب حاوى الفنون وسلوة المحزون لابن الطحان — وهى كتب عامة فى الموسيقى والمغنّين والمغنّيات — قد ذكرت طرفًا من أخبار قيان الجاهليَّة ، فأوْلَى بكتب القيان خاصة أن تُلمّ بهنّ فى ذلك العصر ؛ وأغلب ظنى أن معالم هذا البحث — حين نعثر على تلك الكتب أو على بعضها — ستتغير زيادةً أونقصًا ، وربَّما شملها التغيير جملةً ، وإن كنتُ أرجّح أن الخطوط الرئيسيّة فيه ستبقى ثابتة وتزداد اتّضاحاً .

* * *

وقد عثرت فى أثناء بحثى وتنقيبى فيما استطعت الوصول إليه من المطبوع والمخطوط على قيان ذُكرْنَ بأسمائهنّ ، ورُويتْ عنهنّ أخبار مقتضبة . فاستهوانى البحث ورحتُ أنقّب ، تنقيب الحريص الجاهد ، عن كلّ ما يتصل بهنّ من قريب أو من بعيد . وكان يغرينى فى أثناء بحثى أمل العثور على سيَر وافية لهنّ نستشفّ منها حياتهنّ وشخصياتهنّ . . . غير أنى حين بحثت فى مزْوَدى لم أعثر إلاّ على أشلاء لقيان ، بعضها مبتور وبعضها مشوّه مطموس ، ولكنَّها كلَّها تنطق بيِّنةً جليَّةً بما وراءها يوم أن كانت مخلوقات كاملةً سويَّةً . فأفردتُ لها هذا الفصل أجمع فيه شتيتها وألُمّ متفرّقَها . فإن عجزتُ أنا — فى نطاق الزمن الذى حددت نفسى به والمظان التى لجأتُ إليها — فإنّ حقّ البحث علىّ يقتضينى أن أثبت ما وصلتُ إليه لعلَّه يتيح لغيرى فضل إتمامه . ثمّ إنّ هذه الأخبار المقتضبة المبتورة سيكون لها أصداء تتجاوب فى الفصول التالية . فلم أجد مناصًا ، لهذين السببين معًا ، من إفراد هذا الفصل .

ولا بدّ من البدء بأقدم ما عثرت عليه من القيان ، وإن كنت أحسّ فى نفسى صدوفًا عن التردّى فى مهاوى القدم . لأن السبيل إليه زَلَقٌ لا تكاد تثبت فيها قدم ، ولا يملك المتردّى فيها من زاد إلاّ هذه الروايات ، بل هذه الأساطير المبثوثة فى بطون الكتب العربيّة ، وهى روايات يقف أمامها الباحث حائراً ، لا يستطيع أن ينفيها نفيًا قاطعًا فيسقطها من البحث إسقاطًا يطمئن إلى نتيجته فيستريح ويريح ، ولا يستطيع أن يقيم الدليل على صحتها فيتخذها نصًّا يسند دعواه ويركن إليه بحثه . وما أشبه الخابط فى ظلام هذه الروايات بالمُنْبَتّ يُطيلُ التطواف والخبط ثمّ لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى . . . غير أنّنا — إن عزّ علينا التثبّت التاريخى والمنهج العلمى — لا نملك أن نغفلها لما لها من دلالة بيّنة . كما ذكرتُ فى مواطن متفرّقة من الفصل الأوّل . وسواء أكانت حوادث تاريخيّةً ثابتة أم أساطير اختُلقَتْ ولُفّقَتْ فهى لاشكّ تشير إلى أن هؤلاء العرب فى العصر الجاهلى الأخير أو فى العصور التى تلته كانوا يعرفون — معرفةً لم نتمكّن نحن من التيقّن منها ، أو كانوا يحسون إحساسًا غائمًا — ما تضمّنته تلك الروايات والأساطير من إشارات وحوادث . وهى فى بحثنا هذا تشير إلى علمهم أو شعورهم بقدم وجود القيان فى الجزيرة العربيّة .

* * *

جرادتا عاد :

وبعد ، فقد أجمعت المظان التى بين أيدينا على أن أقدم القيان اللائى عرفتهن الجزيرة العربيّة هما قينتان عُرِفتا بجرادَتَىْ عاد — وما أدراك ماعاد ! — واتّفقت تلك الروايات على سرد قصّة واحدة تتكرّر فيها جميعًا ، نختار منها رواية ابن جرير الطبرى قال[1] : « فلمّا نزل وفد عاد على معاوية بن بكر أقاموا عنده شهراً

---

(١) تاريخ الطبرى — بريل ١ : ٢٣٤ — ٢٣٦ .

يشربون الخمر وتغنّيهم الجرادتان ، قينتان لمعاوية بن بكر ، وكان مسيرهم شهراً ومقامهم شهراً ، فلمّا رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ، وقد بعثهم قومهم يتغوّثون بهم من البلاء الذى أصابهم ، شقّ ذلك عليه ، فقال : هلك أخوالى وأصهارى ، وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيفى نازلون علىّ ، والله ما أدرى كيف أصنع بهم ؟ أستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بُعثوا إليه فيظنوا أنّه ضيقٌ منى بمقامهم عندى ، وقد هلك مَنْ وراءهم من قومهم جهداً وعطشًا — أو كما قال . فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين ، فقالتا : قل شعراً نغنّيهم به لا يدرون من قاله ، لعلّ ذلك أن يحركهم . فقال معاوية بن بكر ، حين أشارتا عليه بذلك :

أَلا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلّ اللهَ يَسْقِينَا غَمَامَا
فَيَسْقِى أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَادًا ... قَدَ ٱمسَوْا لا يُبِينُونَ الكَلامَا
من العَطش الشَّديد فليسَ يُرْجى ... به الشَّيخُ الكَبيرُ وَلا الغُلامَا[1]
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمُ بِخَيرٍ ... فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمُ عَيَامَى
وَإِنَّ الوَحْشَ تَأْتِيهِمْ جِهَارًا ... وَلا تَخْشَى لِعَادِىٍّ سِهَامَا
وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ ... نَهَارَكُمُ وَلَيْلَكُمُ التَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ ... وَلا لُقُّوا التَحِيَّةَ وَالسَّلامَا

فلمّا قال معاوية ذلك الشعر ، غنّتْهم به الجرادتان ، فلمّا سمع القوم ما غنّتا به قال بعضهم لبعض : ياقوم ، إنّما بعثكم قومكم يتغوّثون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا هذا الحرَم فاستسقوا لقومكم » .

---

(١) فى تفسير الطبرى تحقيق محمود محمد شاكر ١٢ : ٥١٠ ، والمسعودى ، مروج الذهب ٢ : ٦٢ — فليس نرجو .

وزاد المسعودى[١] أن إحدى الجرادتين غنَّت أيضًا :

أَلا يا قَيْلُ من عُوص وَمنْ عَادِ بنِ سَامِ
وَعَـادٌ كَالشَّمَارِيخِ منَ الطُّوَلِ الكرَامِ
سَقَى اللهُ بَنى عَادٍ مَعاً صَوْبَ الغَمَامِ[٢]

* * *

غير أنَّه بعد هذا الاتّفاق فى جميع المظان على أن أقدم من غنَّى من العرب هما هاتان القينتان ، وعلى ذكر قصة واحدة عنهما — بعد هذا الاتفاق اختلاف كبير فى اسميهما . فالطبرى فى تاريخه وابن خلدون لا يذكران لهما اسمًا ، ولكن الطبرىّ فى تفسيره[٣] يذكر أن اسم إحداهما : وردة والأخرى : جرادة ، فقيل : جرادتان ، على التغليب . وذهب هذا المذهب النيسابورى فى تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان[٤] .

وقد ذكر ابن بدرون ، فى شرحه لقصيدة ابن عبدون[٥] ، أن إحدى الجرادتين — وهى قعاد — غنَّت بهذا الشعر : « ألا يا قيل ويحك قم فهينم » ، ثمّ غنَّت الثانية ، وهى ثماد :

إِنَّنَا قَوْمٌ جعلْنَا منْ بَنى عَادِ بنِ سَامِ
كالشَّمَارِيخِ منَ الطَّوْ د المَنَاجيبِ العظَامِ

(١) مروج الذهب ٢ : ٦٢ .
(٢) وانظر رسالة الغفران — تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ص : ٢٣٥ — ٢٣٦ . وفى خبر أبى العلاء خلط بين جرادتى عاد وجرادتى ابن جدعان .
(٣) حاشية الطبرى — المطبعة العثمانية ١٣١٥ هـ ٢ : ٢٥٠ — ٢٥١ .
(٤) تفسير غرائب القرآن . . . هامش الطبرى ٨ : ١٣٨ .
(٥) طبعة دوزى فى ليدن ص : ٦٥ .

فَسَقَى اللهُ بَنِى عَا دٍ مَعاً صَوْبَ الغَمَامِ
وَتَلَقَّى وَفْدَهُمْ مِنْ هُمْ بِإِنْعَاشِ الرِّمَام

ومع أن دوزى فى تحقيقه لهذه القصيدة وشرحها أثبت الاسمين على هاتين الصورتين : قعاد وثماد ، غير أنّنى عثرت فى دار الكتب المصريّة على مخطوطين للقصيدة نفسها ، أوّلهما : «كمامة الزهر وفريدة الدهر»[١] جاء فيها أن اسم إحدى الجرادتين : نفاد ، والأخرى : ثماد ، وفى المخطوط الثانى : كتاب «شرح البسامة بأطواق الحمامة»[٢] أن اسم القينة الثانية : تعاد .

وقد ذكر ابن الطحان الموسيقى[٣] أن اسميهما : بعاد وثماد ، وأنّهما كانتا فى زمان عاد الكبرى . وهكذا نرى أن اسم إحدى القينتين على ما روته هذه الكتب : وردة أو بعاد أو قعاد أو نفاد ، والأخرى: جرادة أو ثماد أو تعاد .

وقد ذكر الأستاذ فارمر[٤] أن هذه الفترة الأسطورية من التاريخ الجاهلى تحفظ لنا أسماء أربع قيان: فجرادتا بنى عاد المشهورتان تُدْعَيَان : قعاد وثماد ، وهو يشير فى صفحة سابقة[٥] إلى قيمة الاسم: «ثماد» من ناحية لغويّة ، إذ يربطه بالداجنة أو المدجنة ، وهما كما مرّ معنا من الأسماء التى تُطْلَق على القيان . ويرى فارمر أنّه كان من عادة الداجنة أن تغنّى وتعزف حين تكون السماء ملبدة بالغيم لتستنزل المطر . وثماد وعاء الماء ، أو الحفر يكون فيها قليل من الماء ، وهو يربط بين «ثماد» واسم القبيلة ثمود.

وأمّا القينتان الأخريان اللتان يرى فارمر أن هذه الفترة الأسطورية تحفظهما لنا فهما «هزيلة وعفيرة قينتا بنى جديس . وهى القبيلة التى أفنت طسم» .

---

(١) تحت رقم : ١٦٢ أدب ورقة ١٢ الوجه الثانى – وقد كتب سنة ١٣١٤ هـ .
(٢) تحت رقم ٣١٠ أدب وليس لصفحاتها أرقام – وقد كتب سنة ١٠٥٥ هـ .
(٣) حاوى الفنون ، الباب الرابع عشر .
(٤) Farmer, History of Arabian Music, 19.
(٥) المصدر السابق : ١١ هامش (٤) .

ولا ريب عندنا فى أن الأمر قد التبس على الأستاذ فارمر ، فهزيلة وعفيرة ليستا قينتين كما ذهب ، وإنّما هزيلة هى المرأة التى جاءت عمليقًا تشكو زوجها ، وعفيرة هى التى كانت ذاهبة إلى عمليق ليفتضّها قبل زوجها ، فأخذت القيان معها ليتغنّين . وليس فى جميع المصادر التى أشار إليها فارمر (وهى المسعودى ٣ : ٢٩ ، وابن بدرون : ٥٣ ، والأغانى ١٠ : ٤٨) ما يشير إلى أنّهما قينتان ، بل كلّها تذهب صراحةً إلى ما ذكرنا .

* * *

أم عمرو قينة نَدْمانَىْ جَذيمة :

حتى إذا جاوزنا هذه الفترة رمى بنا القرنُ الثالث الميلادى إلى الشمال ، حيث نلتقى بقينة كانت تدعى : أم عمرو ، ولم يحفظ لنا من أخبارها غير قصة يكاد لا ينالها منها إلاّ ذكر عابر لاسمها ، وإلاّ بيتان من الشعر يُنْسَبان إلى عمرو بن عدى الملقَّب بذى الطَّوْق . . . فقد زعمت القصة[1] أن عمراً هذا قد استطارته الجنّ ، فاستهوته ، فضرب له خاله جَذيمة الأبرش فى البلدان والآفاق زمانًا لا يقدر عليه . ثمّ أقبل رجلان أخوان من بَلْقَين يقال لهما : مالك وعقيل ابنا فارج بن مالك بن كعب بن القين . . . من الشأم يريدان جَذيمة ، قد أهديا له طُرَفًا ومَتاعًا . فلمّا كانا ببعض الطريق نزلا منزلاً ومعهما قينة لهما يقال لها : أم عمرو ، وهى تغنّيهما وتسقيهما[2] . فقدّمت إليهما طعامًا ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل فتى عريان شاحب قد تلبَّد شعره ، وطالت أظفاره ، وساءت حاله . فجاء حتى جلس حجرة منهما ، فمدّ يده يريد الطعام ، فناولته القينة كُراعًا ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٧٥٤ – ٧٥٦ ، الأغانى – ساسى ١٤ : ٧٠ ، مروج الذهب باريس ٣ : ١٨٦ – ١٨٧ .

(٢) شرح مقامات الحريرى للشريشى ٢ : ٨٤ ، وراجع رسالة الغفران للمعرى – ط . الكيلانى ١ : ٩٣ – ٩٤ .

فأكلها ، ثمّ مدّ يده إليها ، فقالت : تعطى العبد كُراعًا فيطمع فى الذراع . فذهبت مثلاً ! ثمّ ناولت الرجلين من شراب كان معها وأوكت زِقَّها ، فقال عمرو بن عدىّ :

صَدَدْتِ الكأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمرٍو ... وَكانَ الكأْسُ مَجراهَا اليَمينَا

وَمَا شَرّ الثَّلاثَة أُمَّ عَمْرٍو ... بِصَاحِبِكِ الَّذى لا تَصْحَبِينَا

ومع أن هذه الرواية تذهب إلى أنّهما خرجا من الشأم ، وأنّهما قابلا عمراً ببعض الطريق فى البادية ، إلاّ أن ابن الطحّان ينسب قينتهما إلى المدينة فيقول[1] : « وكانت بالمدينة قينة يقال لها : أم عمرو ، ولها يقول عمرو بن عدىّ : تصد الكأس عنّا أمّ عمرو » .

* * *

مُلَيْكَة :

حتى إذا أقبل القرن السادس الميلادى ألقى بنا فى الحجاز فى يثرب ، حيث تلقانا قينة لها من القصة التى ذُكرت فيها نصيب يفوق نصيب سابقتها . ذكروا[2] أن أبا كَرِب تُبَّع بن حسّان (وهو تُبَّع الأخير) أقبل من اليمن يريد المشرق ، فمرّ بالمدينة ، فخلّف فيها ابنًا له ، فقتل بها غيلة ، فكرّ تُبَّع راجعًا إلى المدينة وهو مجمع على خرابها . . . فنزل بسفح أُحُد فاحتفر بها بئراً . ثمّ أرسل إلى أهل المدينة ليأتوه ، فذهبوا إليه وفيهم أُحَيْحَة بن الجُلاح ومعه قينة له وخباء ، فضرب الخباء وجعل فيه القينة والخمر ، ثمّ خرج حتى استأذن على تُبَّع فأذن له وأجلسه معه . . . ففطن أُحَيْحَة أنّه يريد قتله ، فخرج من عنده ، فدخل خباءه ، فشرب الخمر وقرض أبياتًا وأمر القينة أن تغنّيه بها ، وجعل تُبَّع عليه

---

(١) حاوى الفنون ورقة : ١٧ .

(٢) الأغانى — ساسى ١٣ : ١١٤ — ١١٦ .

حرسًا ، وكانت قينته تُدْعَى مُلَيْكَة[١] ، فقال :

يَشْتَاقُ قَلْبِي إلى مُلَيْكَةَ لَوْ أَمْسَتْ قَرِيباً ممّنْ يُطَالِبُهَا
ما أَحسَنَ الجِيدَ من مُلَيْكَةَ وَ الـ ـلبّاتِ إِذْ زَانَهَا تَرَائِبُهَا
يا لَيْتَنِي لَيْلَةً ، إذا هَجَعَ الـ ـنَّاسُ وَنَامَ الكلابُ ، صَاحِبُهَا
فِي لَيْلَةٍ لا يُرَى بِهَا أَحَدٌ يَسْعَى عَلَيْنَا إلاَّ كَوَاكِبُهَا
لِتَبْكِنِي قَيْنَةٌ وَمِزْهَرُهَا وَلْتَبْكِنِي قَهْوَةٌ وَشَارِبُهَا
وَلْتَبْكِنِي نَاقَةٌ إذا رَحَلَتْ وَغَابَ فِي سردح مناكِبُهَا[٢]
وَلْتَبْكِنِي عُصْبَةٌ إذا جَمَعَتْ لمْ يَعْلَمِ النَّاسُ منْ عَوَاقِبهَا[٣]

فلم تزل القينة تغنيه بذلك يومَهُ وعامَّةَ ليلته . فلمَّا نام الحرس قال لها : إنى ذاهب إلى أهلى ، فسُدِّى علينا الخباء ، فإذا جاء رسول الملك فقولى له : هو نائم ، فإذا أبوا إلاّ أن يوقظونى فقولى : قد رجع إلى أهله وأرسلنى إلى الملك برسالة ، فإن ذهبوا بك إليه فقولى له : يقول لك أُحَيحَة « اغدر بقينةَ أوْ دَعْ » . ثمَّ انطلق .

* * *

(١) فى كتاب الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب فواز العاملى ص : ٤٢٩ — ٤٣٠ : أن فكيهة اسم القينة بدلا من مليكة .

(٢) فى الخزانة للبغدادى ٣ : ٣٢١ — سربخ — الأرض الواسعة .

(٣) فى الخزانة : ما عواقبها .

بنت عَفْزَر :

وقد تقدّم أنّها إحدى قيان الحانات فى الحيرة ، وقد كان لها بيت يجتمع فيه الناس عامةً للسّماع والشراب ، أو لعلّها كانت تدير حانة تسقى فيها روّادها الخمر وتسمعهم الغناء . ذكر أبو الفرج[1] أن خالد بن جعفر أغار على رهط الحارث بن ظالم فقتل الرجال . والحارث يومئذ غلام . . . فنشأ على بُغْض ، وأردف ذلك قتل خالد زهيرَ بن جَذِيمة . . . واجتمع خالد والحارث عند النعمان بن المنذر فتلاحيا ، فغضب النعمان على الحارث . فلمّا أمسوا اجتمعوا عند قينة من أهل الحيرة يقال لها : بنت عفزر ، يشربون ، فقال لها خالد : تَغَنَّىْ :

دَارٌ لِهِنْدٍ وَالرَّبَابِ وَفَرْتَنَى وَلَمِيسَ قَبلَ حَوَادِثِ الأَيّامِ

وهنّ خالات الحارث بن ظالم ، فغضب الحارث . . . ثمّ إنّ النعمان بن المنذر دعاهم . . . فتنازعا ، فقال خالد : أتنازعنى يا حارث وقد قتلت حاضرتك وتركتُك يتيمًا فى حُجُور النساء ؟ فقال الحارث : ذلك يوم لم أشهده ، وأنا مُغْنٍ اليوم بمكانى . قال خالد : فهلاّ تشكرنى إذ قتلتُ زهير بن جَذِيمة وجعلتُك سيّد غَطفَان ! قال : بلى ، أشكرك على ذلك . فخرج الحارث بن ظالم إلى بنت عفزر فشرب عندها وقال لها : تغنّىْ :

تَعلَّمْ ، أَبَيْتَ اللَّعْنَ ، أَنّىَ فَاتكٌ مِنَ اليَوْمِ أَوْ من بَعدِهِ بابنِ جعفَرِ
أَخَالِدُ قَدْ نَبَّهْتَنى غَيْرَ نَائِمٍ فلا تأْمَنَنْ فَتكى يَدَ الدّهر وَاحذرِ

وقد ذكر الزبيدى[2] أن عفزر اسم رجل أعجمى من أهل الحيرة ، وبابنته ضُرِبَ المثل فى عدم وفاء العهد ، وقيل هى المغنّية المشهورة التى كانت فى

---

(١) الأغانى — ساسى ١٠ : ١٦ — ١٧ .
(٢) تاج العروس (عفزر) .

الحيرة ، وكان وفد النعمان إذا أتوه لَهَوْا بها . وبها شبَّب امرؤ القيس بقوله :

أَشيمُ مُصَاب المُزنِ أينَ مُصَابُهُ وَلا شَيْءَ يَشْفِى منكِ يا ابنةَ عَفزَرَا

* * *

أسماء وعَنْمَة :

وهما قينتا مِقْيَس بن عبد قيس بن قيس بن عَدِىّ بن سعد بن سهم . ورد ذكرهما فى قصة طريفة[1] ، خلاصتها : أن مِقْيس بن عبد قيس كان بيته مألفًا لشباب قريش ، ينفقون عنده ويشربون . فكان يعتاده فُتَّاك قريش وخلعاؤهم ، منهم : أبو لَهَب بن عبد المطلب ، والحَكَم بن أبى العاص ، والحارث بن عامر بن نوفل ، والفاكه بن المغيرة ، ومليح بن الحارث بن السباق ابن عبد الدار . . . وأبو مسافع الأشعرى ، وديك ودُيَيْك من خُزاعة يخدمونهم . فاجتمعوا فى بيت مقيس فتغنَّت أسماء ، وقد نفِد شرابهم ، شعرَ رجل من بَلِىٍّ :

أَبوهةُ كُرّى الخَمْرَ بَينَ صحابَتى فَإِنَّ نَدامايَ لَدَيْكِ عِطاشُ

فَإِنْ يَكُ يَوماً لمْ يَتِمّ نَعيمُهُ وَزَالَتْ ضُحاهُ فالدّمُوعُ رَشَاشُ

فيَا رُبَّ يوْمٍ قَد شَهدْتُ وَلَيلَةٍ لَهَا نَشَوَاتٌ جَمّةٌ وَمَعَاشُ

خَلَوْتُ بها قد ماتَ نحسُ نجومها نَدَامَايَ فيهَا عَامرٌ وَخدَاشُ

إذا غَلَبتْ لُبّيهما الخمرُ وَانتَشتْ مَفَاصلُ لَذَّاتٍ مَعاً ومُشاشُ

وَجَدتهما لم تَظهَرِ الخَمرُ فيهِمَا إذا قيلَ أَحلامُ الرّجَالِ فَرَاشُ

---

(١) شرح ديوان حسان — ط . ليدن ، ص : 51 .

وقد كان قال لهم ديك وديبك : إن عيراً قد أقبلت من الشأم تحمل خمراً فأناخت بالأبطح . فقال أبو لهب : ويلكم أما عندكم نفقة ؟ قالوا : لا والله . قال : فعليكم بغزال الكعبة فإنّما هو غزال أبى (وكان عبد المطّلب استخرجه من زمزم) . فقاموا فانطلقوا وهم يهابون ، وقد أصابتهم ليلة باردة فيها ظلمة ومطر ، حتّى انتهوا إلى الكعبة وليس حولها أحد ، فحمل أبو مسافع وأبو لهب الحارث بن عامر على ظهورهما حتّى ألقياه على الكعبة ، فضرب الغزال فوقع ، فتناوله أبو لهب ، ثمّ أقبلوا به . فقال أبو لهب : قد عرفتم أن الغزال غزال أبى ولى ربعه . فأتوا منزل ديك وديبك فكسروه ، فأخذوا الذهب وعينيه وكانتا من ياقوت ، وطرحوا ظَرْفَه ، وكان على خشب ، فى منزل شيخ من بنى عامر بن لؤى . فأخذ أبو لهب العُنُق والرأس والقرنين ودفع القُرْطَين إليهم ، وقال : هذا لأسماء وعَتْمة ، وانطلق ولم يقربهم .

وذهب القوم فاشتروا كلّ خمر كان بالأبطح ، ثمّ أقبلوا به إلى أصحابهم ، فشربوا وقرّطوا الشَّنْفَ والقُرْطين القينتين .

فمكثت قريش أيّامًا ، ثمّ افتقدوا الغزال ، فتكلّموا فيه وأعظموه ، وكان أشدّهم كلامًا وأجدّهم عبدُ الله بن جُدْعان . . . ثمّ إن العبّاس بن عبد المطلب مرّ ، وهو غلامٌ شاب ، آخر النهار فى حاجة له ، بدُور بنى سهم ، وقد لغط القوم وثملوا وهم يرفعون أصواتهم ، فأصغى لهم ، فسمع بعضهم يقول : غنّيانا بقول أبى مسافع :

إنَّ الغَزَالَ الَّذى كُنتُمْ وَحِلْيَتَهُ تَقْنُونَهُ لِخُطُوبِ الدّهْرِ والغِيَرِ
طَافَتْ بِهِ عُصبةٌ منْ شَرّ قَوْمهمُ أَهْلُ العُلى وَالنَّدى وَالبَيت ذى الستر

(أربعة أبيات . . .) فغنّتا ، فأقبل العبّاس فقال : يا أبا طالب هل لك فى سَرَقَة الغزال ؟ . . . فأقبل أبو طالب والزبير وابن جُدْعان . . حتّى دنوا من الباب فسمعوهم يقولون : غنّينا . فقال أبو مسافع : غنّيهم بقولى هذا :

أَبْلِغْ بَنِى النَّضْرِ أَعْلاهَا وَأَسفَلَهَا ... أَنَّ الغَزَالَ وَبَيْتِ اللهِ وَالرُّكُنِ
أَمْسَتْ قِيَانُ بَنِى سَهْمٍ تَقَسَّمُهُ ... لَمْ يَغْلُ عندَ نَدامَاهنَّ فى الثَّمَنِ
ظَلِلْنَ يَجرِى فَتِيقُ المِسْكِ بَينهمُ ... عَلى مَفَارِقِهِمْ فَنًّا عَلى فَنَنِ
وقَهْوَةٍ قَرْقَفٍ يُغْلِى التِّجَارُ بِهَا ... حَانِيَّةٍ عُتِّقَتْ فى الدَّنِّ من زَمَنِ

. . . فلمَّا دخلوا وجدوا مقْيسًا غائبًا، فأخذوا القينتين ، فلزموهما فوجدوا إحداهما مقرّطةً قُرْطَ الغزال، والأخرى مُشَنَّفة بشَنْفه . فقالتا : نحن آمنتان ونخبركم الخبر ؟ فقالوا : نعم : فأخبرتا . . .

ويبدو من قول أبى مسافع السابق : « أمست قيان بنى سهم تَقَسَّمه » أن هؤلاء القيان كنّ أكثر من اثنتين ، وقد ذكر ابن الطحّان[1] أربعًا منهن ، قال : « وأسما وغنمة وقل وبهوه قيان عبد الله بن مقيس بن عدىّ بن سهم » . أمَّا الأوليَان فصوابهما — كما مرّ بنا — أسماء وعَنْمة ، وأمَّا الثالثة فربَّما كان صوابها : قَتْل ، وأمَّا الرابعة فربَّما كانت : بوهة ، التى ورد ذكرها فى بدء حديثنا عن أسماء وعثمة فى الشعر الذى تغنَّت به أسماء لرجل من بَلِىّ هو قوله :

أَبوهةُ كُرِّى الخَمرَ بَينَ صحابَتى ... فإنَّ نَدامَاىَ لَدَيكِ عطَاشُ

وقد ورد ذكر هذه الحادثة والقينتين فى شعر لأبى مسافع الأشعرى ، منه قوله :

أَبْلِغْ قُصَيًّا إذَا جِئْتَهَا ... فَأَىّ فَتًى وَلَدَتْ نَوْفَلُ
إذا شَرِب الخَمْر أَغْلى بِهَا ... وإنْ جهدتْ لَوْمَهُ العُذَّلُ
دَعَاهُ إلى الشَّنْفِ شَنْف الغَزَا ... لِ حُبٌّ بِخَمْصَانةٍ عيْطَلُ
لعَنْسَمَةَ حِينَ تَرَاءَتْ لَهُ ... وَأَسْمَاءُ عَاطِلَةً أَجْمَلُ

(١) حاوى الفنون وسلوة المحزون — ورقة ١٨ .

وقال أبو إهاب :

يَا للرّجَالِ لِأَحْلامٍ مُضَلَّلَةٍ لَوْ كَانَ يَنْفَعُهَا حَزْمٌ وَتَجرِيبُ
دَارُ ابنِ جُدْعانَ مأْوَى كلّ بَاغِيَةٍ فكَيفَ يُجْمَعُ فيهَا البِرُّ والحُوبُ

وإنّما عرّض بقيان عبد الله بن جدعان . . .

* * *

قيان ابن جُدْعان :

فقد كان إذن لعبد الله بن جدعان قيان تُلهّيه[1] وتغنّي له ، وربّما لأصحابه ولمن يؤمّ داره ، فيظفر بمجالس الأنس والغناء فيها . ويبدو أن هؤلاء القيان كنّ كثيرات ، وكان ابن جُدْعان يتاجر فيهنّ ، فقد ذكر الخوارزمى[2] أن عبد الله بن جُدْعان نخّاس ، وله جوارٍ يُسَاعين ، ويبيع أولادهنّ . فإن صحّ ذلك ، وصحّ ما ذكره أبو إهاب ، جاز لنا أن نذهب إلى أن ابن جُدْعان كانت له دار عامّة تزخر بالقيان والجوارى فهى « مأوى كلّ باغية » ، وأن الناس لذلك العهد كانوا يؤمّونها يطلبون فيها لذّة السماع ومتعة الجسد . ومع ذلك فإنّه يُرْوَى لنا أن ابن جدعان كان سيداً من سادات قريش فى الجاهليّة ، وكان الشعراء يمدحونه ويطلبون عطاءه ، وممّن مدحه دُرَيْد بن الصِّمّة[3] قال :

رَحلْتُ البِلادَ فَمَا إنْ أَرَى شَبِيهَ ابنِ جُدْعَانَ وَسطَ العرَبْ
سِوَى مَلكٍ شَامخٍ مُلْكُهُ لَهُ البَحرُ يجرِى وَعَينُ الذَّهَبْ

ومنهم أُميّة بن أبى الصّلْت فى قصة سنوردها بعد قليل. . . ويظهر ألاّ

---

(١) محمد بن حبيب ، المحبر : ١٣٨ .
(٢) مفيد العلوم ومبيد الهموم : ٢٧٩ .
(٣) الأغانى – ساسى ٩ : ١٠ .

تناقض فى ذلك ، فالذى يبدو لنا أن النخاسة كانت معاشاً كسائر ضروب المعاش لذلك العهد ، لا ينكرها الناس ولا يرون فيها ما يغضّ من شرف صاحبها ورئاسته . وهناك كثير من أشراف العرب وساداتهم فى الجاهليّة كانوا يجمعون بين السيادة والشرف وبين التكسّب والتجارة ، فأبو طالب كان يبيع العطر ، وأبو بكر كان بزّازاً ، والعوّام كان خيّاطاً ، وعُقْبة بن أبى مَعيط خمّاراً ، وأبو سفيان يبيع الزيت والأدَم[١] .

وسيادة عبد الله بن جُدْعان ذات شقين : سيادة نَسَب ، وسيادة مال . أمّا سيادة النسب فهو سيد تَيْم فى الجاهليّة[٢] ، وابن عمّ عائشة ، رضى الله عنها[٣] . وأمّا غناه ووفرة ماله فالدلائل عليه كثيرة : فقد كان تاجراً كثير السفر والتنقّل بين البلاد ، ويذكر لنا صاحب الإكليل[٤] مغارةً قديمة بموضع قريب من مكّة ، فيها قبور ملوك جُرْهم ، كانت مليئة بالجوهر والمال ، فعثر عليها ابن جدعان . وحدّث ابن جدعان نفسه بخبر هذه المغارة قال : وأخرجتُ ما أصبتُ من المال وأخذت الألواح (المكتوب عليها أسماء الموتَى وعمرهم وشعر عنهم) فلمّا كان الصباح أتت سيّارةٌ يريدون مَدْيَن ، فسرتُ معهم لا يدرون من أنا ولا ما معى ، حتّى أتيت مصر ، فبعت ما معى ، فأصبت مالاً جليلاً ، فرجعت . . .

وقد وفد على كسرى ملك آل ساسان ، وسمع عنده غناء الحسان ، وشدا جانباً ممّا سمع[٥] . وربّما كان لهذه الزيارة أثر فى اقتنائه القيان . وكان ابن جدعان ، كما ذكرتْ عنه عائشة[٦] : يطعم الطعام ويقرى الضيف ويفعل المعروف .

---

(١) مفيد العلوم : ٢٧٩ .

(٢) مسالك الأبصار – نسخة مصورة بدار الكتب – رقم ٥٥٩ معارف عامة (الجزء السادس –١) ورقة ٨٨ .

(٣) الإكليل ٨ : ٩٢ .

(٤) الإكليل ٨ : ١٨٣ – ١٩٠ .

(٥) مسالك الأبصار – النسخة المصورة السابقة .

(٦) الإكليل ٨ : ٩٢ .

وقد حضر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، إحدى مآدبه التى كان يقيمها ، وقال : كنت أستظلّ بظلّ جفنة عبد الله بن جدعان صكّةَ عُمَّى — يعنى فى الهاجرة .

وأمّا قيانه فقد مرّ بنا ذكرهن فى شعر أبى إهاب ، وقد اشتهر منهن اثنتان سمّاهما : الجرادتين ، قال ابن الكلبىّ[1] : كانت لابن جدعان أمَتان تسميّان الجرادتين ، تتغنّيان فى الجاهليّة ، سمّاهما بجرادتى عاد ، ووهبهما ابن جدعان لأميّة بن أبى الصّلْت الثّقَفى ، وقد كان امتدحه . وكان ابن جدعان سيداً جواداً . فرأى أميّة ينظر إليهما ، فأعطاه إيّاهما . . . قدم أميّة على عبد الله ابن جدعان ، فلمّا دخل عليه قال له عبد الله : أمرٌ ما أتَى بك ؟ فقال أميّة : كلاب غرماء[2] نبحتنى ونهشتنى . فقال له عبد الله : قدمت علىّ وأنا عليل من حقوق لَزِمَتْنى ونهشتنى ، فأنْظِرْنى قليلاً ما فى يدى[3] ، وقد ضَمِنتُكَ قضاءَ دَينك ولا أسأل عن مبلغه . فأقام أميّة أيّاماً فأتاه فقال :

أَأَذْكُرُ حَاجَتى أَمْ قَدْ كَفَانى ... حَيَاؤُكَ ، إنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ

فلمّا أنشده أميّة هذا الشعر كانت عنده قينتان ، فقال : خذ أيتهما شئت . فأخذ إحداهما وانصرف . فمرّ بمجلس من مجالس قريش ، فلاموه على أخذها وقالوا له : لقد لقيتَهُ عليلاً فلو رددتها عليه ، فإن الشيخ يحتاج إلى خدمتها ، كان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كلّ حقّ ضمنه لك . فوقع الكلام من أميّة موقعًا ، وندم ، فرجع إليه ليردّها عليه . فلمّا أتاه بها قال له ابن جدعان : لعلّك إنّما رددتَها لأن قريشًا لاموك على أخذها ، وقالوا كذا كذا ، فوصف لأميّة ما قاله القوم . فقال له أميّة : والله ما أخطأتَ يا أبا زهير . فقال عبد الله ابن جدعان : فما الذى قلت فى ذلك ؟ فقال أميّة :

---

(١) الأغانى — ساسى ٨ : ٢ — ٥ .

(٢) فى المستجاد من فعلات الأجواد : كلاب غرمائى نبحتنى .

(٣) فى المستجاد : فأنظرنى قليلا يجم ما فى يدى — أى يكثر ويجتمع .

عَطاؤكَ زَيْنٌ لامرئٍ إنْ حَبَوْتَهُ بِبَذْلٍ وَمَا كُلّ العَطَاءِ يَزِينُ
وَلَيْس بِشَينٍ لامْرئٍ بَذْلُ وجهه إلَيك كمَا بَعضُ السؤَال يَشينُ

فقال عبد الله لأميَّة : خذ الأخرى ، فإن إحداهما لا تصلح إلاّ بالأخرى[1] . فأخذهما جميعًا وخرج . فلمَّا صار إلى القوم بهما أنشأ يقول :

ومَا لى لا أُحَيِّيهِ وَعِنْدِى مَواهبُ يَطَّلِعنَ من النّجادِ

وقد ذكر أبو الفرج شعراً غنَّت فيه جرادتا ابن جدعان . فالشعر الأوّل هو :

أَقْفَرَ منْ أَهْلِهِ مَصِيفُ فَبَطْنُ نَخْلَةَ فَالعَرِيفُ
هلْ تُبْلِغَنّى دِيَارَ قَوْمى مَهْرِيَّةٌ سَيْرُهَا زَفِيفُ
يَا أُمّ نُعْمَانَ نَوِّلينَا قَدْ يَنْفَعُ النَّائِلُ الطَّفِيفُ
أَعْمَامُهَا الصِّيدُ منْ لُؤَىٍّ حَقًّا . وَأَخْوَالُهَا ثَقِيفُ

قال أبو الفرج[2] : الشعر لأبى فَرْعَةَ الكنانى ، والغناء لجرادتى ابن جدعان ولحنه من خفيف الثقيل ، وفيه فى الثالث والرابع ثقيل أول مطلق .

والشعر الثانى هو بيتا أميَّة المتقدّمان : عطاؤك زين لامرئ إنْ حبوته . . . قال أبو الفرج : غنَّت فيه جرادتا ابن جدعان .

وقد ذكر ابن الطحان[3] أن اسمى قينتى ابن جدعان : ظبية والرباب ، ولم أعثر على هذه التسمية فى غيره .

* * *

(١) الجملة الأخيرة زيادة من المحبر : ١٣٨ .
(٢) الأغانى — ساسى ٨ : ٢ — ٥ .
(٣) حاوى الفنون ورقة : ١٨ .

هُرَيْرَة وقُتَيْلة وجُبَيْرة :

وسنتحدّث عنهنّ مفصّلين القول فى أخبارهنّ وشعر الأعشى فيهنّ ، فى الفصل الثالث من الباب الثانى عند حديثنا عن أثر القيان فى الأعشى .

* * *

فرتنَى وقُرَيْبة :

وقينتان أُخْرَيان من هؤلاء القيان اللواتى عثرتُ على أسمائهن وطرف من أخبارهن هما فرتنى وقُرَيْبة قينتا ابن خَطَل . قال ابن إسحاق[1] : « ... وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد عهد إلى أمَرائه من المسلمين ، حين أمرهم أن يدخلوا مكّة ، ألاّ يقتلوا أحداً إلامن قاتلهم . إلاّ أنّه قد عهد فى نفرٍ سمّاهم أمَرَ بقتلهم ، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة ، منهم . . . عبد الله ابن خَطَل ، رجل من بنى تيم بن غالب ، وإنّما أمر بقتله أنّه كان مسلماً فبعثه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مصدّقًا ، وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه ، وكان مسلماً ، فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ، ونام ، فاستيقظ ولم يصنع له شيئًا ، فعدا عليه فقتله ، ثمّ ارتدّ مشركًا . وكانت له قينتان : فرتنى ، وأخرى معها ، وكانتا تغنّيانه بهجاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقتلهما معه » . وهذه الأخرى هى : قُرَيْبَة . قال الطبرى نقلاً عن الواقدى[2] : قُرَيْبة قُتِلت يومئذٍ ، وفرتنى عاشت إلى خلافة عثمان .

---

(١) السيرة – بولاق ٢ : ٢١٨ ، الطبرى – بريل ٣ : ١٦٤٠ .

(٢) الطبرى ٣ : ١٦٤٢ .

لكن السُّهَيْلى قال إن فرتنى أسلمت ، وإن الأخرى أُمِّنَتْ ثمّ أسلمت ، ونقله ابن سعد[١] .

* * *

سارة وعزّة :

وممّن أمر الرسول ، صلى الله عليه وسلّم ، بقتلهم يوم دخل مكّة : سارة ، مولاة لبعض بنى عبد المطلب ،قيل : هو عمرو بن هاشم بن عبد المطلب[٢] ، وقيل : هى مولاة عمرو بن أبى صَيْفىّ بن هاشم بن عبد مناف[٣] .

ذكر ابن إسحاق[٤] أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لمّا أجمع المسير إلى مكّة كتب حاطب بن أبى بَلْتَعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بذلك ، ثمّ أعطاه امرأة — زعم محمد بن جعفر أنّها من مُزَينة ، وزعم غيره أنّها سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب — وجعل لها جُعْلاً على أن تبلّغه قريشًا ، فجعلته فى رأسها ، ثمّ فتلت عليه قرونها ، ثمّ خرجت به .

ثمّ قال[٥] : إن سارة كانت ممّن يؤذى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بمكّة ، فأمر بقتلها ، ثمّ استؤمن لها فأمّنها ، ثمّ بقيت حتى أوطأها رجلٌ من الناس فرسًا له فى زمن عمر بن الخطّاب بالأبطح فقتلها .

ولكنّ الطبرى بعد ذلك بقليل ينقل عن الواقدى أن سارة مولاة عمرو بن هاشم ابن عبد المطلب بن عبد مناف قُتلت يومئذٍ (يوم الفتح) .

---

(١) تاج العروس (فرت) . وقد ذكر الزبيرى فى نسب قريش : ٤٤٢ — ٤٤٣ ابن خطل وقينتيه ، ولم يسمهما .

ومن القيان اللائى عثرنا على أسمائهن : الرائعة ، قينة عمرو بن ثعلبة ، وابنتها سلمى . انظر القاموس المحيط للفيروز أبادى (تبع) .

(٢) الواقدى ، المغازى : ٢٦ و ٢٩ ؛ والإصابة (سارة) .

(٣) نسب قريش : ٩٠ — ٩١ ؛ جمهرة الأنساب : ١٣ ؛ إمتاع الأسماع ١ : ٣٦٢ .

(٤) السيرة النبوية (الحلبى) ٤ : ٤٠ ؛ وتاريخ الطبرى ١ : ١٦٢٦ .

(٥) السيرة ٤ : ٥٣ ؛ وتاريخ الطبرى ١ : ١٦٤٠ — ١٦٤٢ .

وقد نصّ المقريزى[١] وابن الطحان[٢] على أن سارة كانت قينة مغنّية ، قال المقريزى : « ومضت سارةُ إلى مكّة ، وكانت مغنّيةً ، فأقبلت تتغنّى بهجاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقد ارتدّت عن الإسلام » .

وقد سبقهما إلى النص على ذلك الواقدى فى مغازيه ، وذكر معها قينة مغنية أخرى هى : عزّة مولاة الأسود بن المطلب ، وقينة ثالثة لم يسمّها ، قال[٣] : « خرجت قريش سراعًا (إلى يوم بدر) ، وخرجوا بالقيان والدفوف ، وسارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب ، وعزّة مولاة الأسود بن المطلب ، ومولاة أمية بن خلف يُغنّين . . . »

* * *

الشبجاء الحضرمية وهند بنت يامين :

وإنّما ذكرتهما بعد سارة وصاحبتيها فَرْتنى وقُرَيْبة لأن فارمر[٤] يذكر أنّهما قينتان غنّتا بهجاء المسلمين ، فقطع المهاجر — حين أخضع اليمن فى خلافة أبى بكر — أيديهما ونزع أسنانهما ، ثمّ ذكر أنّهما كانتا تغنّيان غناءً يصاحبه العزف بالمزمار . ويرجعنا فارمر إلى البلاذرى وإلى الطبرى ! ويجدر بى أن أذكر ما قاله كلاهما بنصه حتى نتبيّن وجه الصواب .

قال البلاذرى[٥] : « كان بالنُّجَيْر نسوةٌ شمتن بوفاة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكتب أبو بكر ، رضى الله عنه ، فى قطع أيديهن وأرجلهن ، منهنّ : الشَّبْجاء الحضرميّة وهند بنت يامين اليهوديّة » .

---

(١) إمتاع الأسماع ١ : ٣٦٣ .

(٢) حاوى الفنون ، ورقة : ١٨ .

(٣) المغازى : ٢٦ و ٢٩ — ٣٠ .

(٤) Farmer, Hist. of Arabian Music, 41.

(٥) فتوح البلدان — بريل سنة ١٨٦٦ — ١ : ١٠٢ .

وأمّا الطبرى فيقول[١] : وقع إلى المهاجر – قائد جيوش المسلمين فى حروب الردة وعامل أبى بكر على اليمن – امرأتان مغنّيتان ، غنّت إحداهما بشتم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقطع يدها ونزع ثنيتها . فكتب إليه أبو بكر رحمه الله « بلغنى الذى سرت به فى المرأة التى تغنّت وزمرت بشتيمة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلولا ما قد سبقتنى فيها لأمرتُك بقتلها ، لأن حدّ الأنبياء ليس يشبه الحدود ، فمن تعاطى ذلك من مستسلم فهو مرتدّ ، أو معاهد فهو محارب غادر » . وكتب إليه أبو بكر فى التى تغنّت بهجاء المسلمين : « أمّا بعد ، فإنّه بلغنى أنّك قطعت يد امرأة فى أن تغنّت بهجاء المسلمين ونزعت ثنيّتَها ، فإن كانت ممّن تدّعى الإسلام فأدبٌ وتقدمةٌ دون المُثْلة ، وإن كانت ذمّيّةً فلَعَمرى لمَا صفحتَ عنه من الشّرْكِ أعظم ، ولو كنتُ تقدّمتُ إليك فى مثل هذا لبلغت مكروهًا ، فاقبل الدّعَة ، وإيّاك والمُثْلَة فى الناس ، فإنّها مأثَمٌ ومَنْفَرة إلاّ فى قصاص » .

ونحن نرى أن بين نص البلاذرى ونص الطبرى خلافًا ينحصر فى أربع نقاط :

الأولى : أن البلاذرى سمّى المرأتين ، ولكنّ الطبرى لم يسمّهما .

والثانية : أن البلاذرى ، حينما سمّاهما ، لم يذكر أنّهما كانتا تغنّيان ، وإنّما ذكر أنّهما ممّن شمتن بوفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر وجه الشّماتة . ولكن الطبرى ، إذ لم يسمّهما ، ذكر أنّهما امرأتان مغنّيتان غنّتا وزمرتا .

والثالثة : أن البلاذرى يذكر أن أبا بكر هو الذى أمر بقطع أيديهما وأرجلهما ، ولكن رسالتى أبى بكر ، كما يرويهما الطبرى ، تظهران لنا أن أبا بكر قد أنكر على المهاجر هذا العقاب .

والرابعة : أن البلاذرى يذكر أنّهما قُطعت أيديهما وأرجلهما ، ولكن الطبرى يذكر أنّهما قطعت أيديهما ونزعت ثنيّتاهما . فالبلاذرى إذن لم يذكر صراحة

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٢٠١٤ – ٢٠١٥ .

أنّهما مغنّيتان ، ولم يذكر ذلك تلميحًا ولا إشارة ، إذ أنّه لم يشر إلى نزع الثنيّة وهو رمز — فيما أرى — لعقاب الغناء.

وأغلب الظن أن فارمر جمع بين النصين السابقين ، فأخذ من البلاذرى الاسمين ، وأخذ من الطبرى أنّهما قينتان . ولكن النصين فيما أرى لا يبيحان هذا الجمع ، إذ قد تكون المرأتان المغنيتان فى رواية الطبرى غير الثبجاء وهند بنت يامين فى رواية البلاذرى .

وأيًّا كان الأمر ، فإنى عثرت على نص ثالث يتصل بهاتين المرأتين ربّما ألقى على النصين السابقين بعض الوضوح . . . ذكر محمد بن حبيب النسّابة[1] أنّه « كان بحضرموت ستّ نسوة من كندة وحضرموت يتمنّيْن موت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فخضبن أيديهنّ بالحنّاء ، وضربن بالدّفوف ، فخرج إليهن بغايا حضرموت ، ففعلن كفعلهنّ . وكان اللواتى اجتمعن إلى الستّ النسوة نيفًا وعشرين امرأة ، فكنّ متفرّقات فى قرى حضرموت . . . منهنّ العمرّدة بنت معدى كرب ، وهنيدة بنت أبى شمر ، فهاتان من الأشراف. ومن تأشب إليهن : التيحاء (كذا) الحضرميّة وهى أم سيف بن معدى كرب . . . وهرّ (كذا) بنت يامن اليهوديّة التى كانت يُضرَب بها المثل فى الزنا فيقال : أزنَى من هرّ؛ وكان لها أخ قين يقال له مورق . . . » ثمّ ذكر ابن حبيب نص رسالة أبى بكر إلى المهاجر بن أبى أميّة عامله على كِنْدة والصَّدف يومئذ . جاء فيها . . . « إن نسوة من أهل اليمن كنّ يتمنّين موت رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، وتأشب إليهن قيانٌ لكِنْدة وعواهر لحضرموت ، فخضبن أيديهن ، وأظهرن محاسنهن ، وضربن بالدفوف ، جراءة منهن على الله ، واستخفافًا بحقه وحقّ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم. فإذا جاء كتابى هذا فسرْ إليهن بخيلك ورجلك حتى تقطع أيديهن . . . » .

* * *

(١) المحبر : ١٨٤ — ١٨٨ .

أرنب المدنية :

قال ابن حجر فى الإصابة[١] : « أرنب : المدنية المغنية ، روينا فى الجزء الثالث من أمالى المحاملى رواية الأصبهانيين من طريق ابن جريج : أخبرنى أبو الإصبع أن جميلة المغنية أخبرته أنّها سألت جابر بن عبد الله عن الغناء ، فقال : نكح بعض الأنصار بعض أهل عائشة ، فأهدتها إلى قُبَاء ، فقال لها النبىّ ، صلى الله عليه وآله وسلم : أهديتِ عروسك ؟ قالت : نعم ، قال : فأرسلتِ معها بغناء ، فإن الأنصار يحبّونه ؟ قالت : لا . قال : فأدركيها بأرنب — امرأة كانت تغنى بالمدينة » .

* * *

النابغة بنت عبد الله :

وهى أمّ عمرو بن العاص فيما يقال ، ذكر ابن عبد ربّه بسنده قال [٢] : إن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية ، وهى عجوز كبيرة ... فقالت لعمرو بن العاص : وأنت يا ابن النابغة تتكلّم ! وأمّك كانت أشهر امرأة تغنّى بمكّة وآخذ هنّ لأجرة ! ادّعاك خمسة نفر من قريش ، فسُئلت أمّك عنهم ، فقالت كلّهم أتانى فانظروا أشبههم به فألحقوه به ! فغلب عليك شبه العاص ابن وائل ، فلحقتَ به !

وقال أيضًا[٣] : خاطر رجل أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو فى الخطبة فيقول : أيّها الأمير ، من أمّك ؟ ففعل . فقال له : النابغة بنت عبد الله ، أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعُكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل ، فولدت ، فأنجبت ، فإن كانوا جعلوا لك شيئًا فخذه !

* * *

---

(١) الإصابة ، جزء النساء (أرنب) .
(٢) العقد ١ : ٣٤١ — ٣٤٢ .
(٣) العقد ١ : ٤٤ .

سيرين :

قينة حسان بن ثابت شاعر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . قال ابن سعد[١] : كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يُعْجَب بمارية القبطيّة ، وكانت بيضاء جعدة جميلة ، فأنزلها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأختها على أمّ سليم بنت ملحان . فدخل عليهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فعرض عليهما الإسلام فأسلمتا . فوطئ مارية بالملك ، وحوّلها إلى مال له بالعالية ... ووهب أختها سيرين لحسّان بن ثابت الشاعر فولدت له عبد الرحمن .

وقد ذكر أبو الفرج[٢] سبب هذه الهبة ، وذلك أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رضى عن حسّان بعد حديث الإفك فوهب له سيرين .

وقد رُوى عن ابن عباس ، رضى الله عنه ، قال[٣] : مرّ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بحسان وقد رش فِناء أطُمه ومعه أصحابه سماطَين ، وجارية له يقال لها سيرين ، معها مزهر تختطف به السّماطين وهى تغنّيهم ، فلمّا مرّ النبيّ ، عليه السلام ، ولم يأذن لهم ولم ينههم . فانتهى إليها وهى تقول :

هَلْ عَلَيَّ وَيْحَكُمَا إنْ لَهَوْتُ مِنْ حَرَجِ

قال : فتبسم النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا حرج عليك إن شاء الله .

وقد روى أبو الفرج[٤] شعراً لحسان غنّت فيه سيرين وهو :

أَوْلادُ جَفْنَةَ عِنْدَ قَبْرِ أَبيهِمِ قَبْرِ ابنِ مارِيَةَ الجَوَادِ المُفْضِلِ

---

(١) الطبقات – لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٨ – ١ : ١١٦ – ١١٧ .
(٢) الأغانى – بولاق ٤ : ١٤ .
(٣) المفضل بن سلمة ، كتاب العود والملاهى ورقة (٨) وكذلك الأغانى – ساسى ١٠ : ١٦١ .
(٤) الأغانى – ساسى ١٦ : ١٧ .

يسقُونَ مَن وَرَدَ البريصَ عَليهم كأْساً تُصَفَّقُ بالرّحيق السَّلسَلِ
بِيضُ الوُجُوهِ كَريمَةٌ أَحسابهُم شُمّ الأُنُوف منَ الطِّرَازِ الأَوّلِ
يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرّ كِلابُهُمْ لا يَسْأَلُونَ عَنِ السّوَادِ المُقبِلِ

ذكر حبش أن فيه لسيرين قينة حسان بن ثابت لحنًا ثقيلاً أوّل ابتداؤه نشيد ، وقال كذلك[1] إن عزة الميلاء كانت تغنّى أغانى القيان من القدائم مثل : سيرين ، وزرنب ، وخولة ، والرباب ، وسلمى ، ورائقة .

فإذن هناك قيان أُخَر غير من ذكرنا ... أشار إليهن أبو الفرج هذه الإشارة العابرة الغامضة فى نصّه السابق . ولكن ، مَنْ هُنّ هؤلاء القيان من القدائم ؟ إن أبا الفرج نفسه فى كتابه الجليل يصمت صمتًا ثقيلاً عن إجابة هذا التساؤل . وقد ظاهره فى هذا الصمت جميع المصادر التى رجعتُ إليها . وكلّ ما وصلت إليه عنهن لا يكاد يغنى ، بل هو لا يغنى شيئًا ، وإنّما يعتمد على الظن والتخيل . فهل رائقة هذه هى أمّ ابن سُرَيْج التى ذكرها أبوالفرج[2] بقوله : « إن أم ابن سريج مولاة لآل المطلب يقال لها : رائقة ، وقيل : بل أمّه : هند ، أخت رائقة » .

وهل سيرين هى ، كما ذكرنا ، قينة حسان ؟ أو لعلّها قينة أخرى ، فقد ذكر ابن الطحان[3] أن من قيان العصر الجاهلى قينتين : « للحضرمى هما سيرين وصاحبتها » . . . هكذا . . . الحضرمى . . . وسيرين . . . وصاحبتها . . . بهذا الإيجاز المقتضب ، ثمّ لا شىء ؟

وهل الرباب هى إحدى قينتى ابن جدعان ؟ فقد مرّ بنا أن ابن الطحّان قد ذكر أن قينتى ابن جدعان اسماهما : ظبية والرباب .

---

(١) الأغانى — ساسى ١٦ : ١٢ .
(٢) الأغانى — بولاق ١ : ٩٨ .
(٣) حاوى الفنون ، ورقة : ١٨ .

ولو صحّ هذا التساؤل وكانت هؤلاء القيان هنّ من ذُكِرْنَ ، فهل زدناهن تعريفًا ؟ ثمّ من هنّ : زرنب وخولة وسلمى . . . ؟

لا ريب أن جواب ذلك كلّه فى تلك المصادر التى ترجمت للقيان ، والتى ذكرنا صَدْرَ هذا الفصل طرفًا من حديثها ، فلعلّنا مستطيعون فى مقبل الأيّام جلاء هذا القتام الكثيف الذى يحيط بهن حينما ننعم بالعثور على تلك الكتب أو على بعضها .